

بقلم الامير موريس شهاب  
امين دار الآثار اللبنانية



٢

### فتية مصر

ان اقدم ما وصل الينا من الآثار الدالة على قدم العلاقات بين مصر وبييلوس قطعة اناه. نقش عليها اسم الفرعون خاسنخوي . وقد كان مالكا على مصر نحو السنة ٣٢٠٠ ق. م .

ولنا من العصر نفسه اسطوانة وجدت في بييلوس ، كان يتعملها خائماً رجل كتب عليها ، بالحروف الهيرغليفية ، انه محبوب الاله - الشمس را ، والالهة ايزيس - حاطور ، والاله هاي - طو . وقد يرهن السيد موته ان هاي - طو هذا ان هو الآ الاله الذي دُعي في ما بعد بلسم أدونيس .

كان أدونيس المأ شاباً رجيلاً ، وصياداً ماهراً . فطلقت به ربة بييلوس . وكان ان توغل يوماً في احدى الغابات فطارد خنزيراً برياً حتى جرحه ، فارتد هذا على عقبه وانقض على ادونيس قتله . فال دم الاله على ارض الغابة ، وفي الغد شاهد الناس شقائتي النعمان غمت بكثرة حتى غطت ذلك المكان . على ان قسماً من هذا الدم سال حتى وحل الى نهر ابراهيم فاصطبغت مياهه بلونه . وما زالت حتى يومنا هذا ، تسيل حمراء في ايام الربيع ، فتصبغ قسماً من مياه البحر حول مصبها . وكان الاقدمون يبتسمون حول النهر ، في مثل ذلك الوقت ، فيكون الاله القليل ؛ حتى اذا استعادت المياه لونها الطبيعي ، واكتت الارض كساءها الاخضر ، عادت الى الطبيعة تضرتها

السابقة ، ورجع ادونيس الى الحياة - عند ذاك كان يتدنى موسم الطواف من بيلوس الى افقا ، قسير الجماهير ونهر ابراهيم ، وقد اهاب بها داعي الفرح فاندفعت تُصعد اهازيج السرور منصرفة الى ما حطّ من الملاهي وما شأن من المذات التي استحسنت مدة طويّة في ذاك الشعب حتى ان النصرانية لم تقوَ على ازلتها الا بصعوبة .

على ان هذه العبادة للاله ادونيس لا تظهر قوة الازدهار الا في عصر متأخر . اما في ما سبق من العصر فيظهر ان العبادة الاكثر انتشاراً كانت منصرفة الى حبيته الالهية عشترت ، الهة الولادة ، التي كان يدعوها الفنيقيون بعلة جيبيل ، اي ربة جيبيل .

وقد بلغ تأثر الجيلين بالنن المصري مبلغاً بعيداً حتى انهم كانوا يمثلون ربّتهم على هيئة الالهة ايزيس المصرية جالسة على عرش ، حاملةً باحدى يديها صولجان الملك ، وعلى رأسها دائرة الشمس بين قرني حاطور . وهي تظهر بهذه الصورة ليس فقط على الاسطوانة التي ذكّرتنا ، بل في صورة محفورة منذ السنة الالفين ق . م . تمثل ملك بيلوس راکماً امام الالهة .

هذا وان في اعلى رقيم يرمك الرابي الى العصر الفارسي صورة الملك مكتسباً على الزبي الفارسي ، وامامه بطة بيلوس ولم تفارق زبيها المصري . فيظهر من هذا الدوام في تصويرها على الهيئة المصرية ، برغم انتقال السلطة العليا من ايدي المصريين ، كم كان بعيداً تأثير هذا الشعب الذي بسط نفوذه على العالم بديته لا بيفه .

اقتدى جميع كبار الفراعنة في الالف الثالث ق . م . بالفرعون القديم خاسخومي ، فملأوا هيكل بيلوس بالآنية المأخوذة من حجار الشطوط (albatre) التي كانوا يملأونها ، على ما نظن ، ببعض الهدايا الثمينة . ويمكن زائر متحسناً ان يشاهد في خزائنه قطعاً عديدة من هذه الآنية ، حافظة اسما . مشاهير الفراعنة ككفرين وميسيرينوس (مشكاوردي) بانبي اهرام الحيزة ، وتيتي ، وغيره ، ولاسيا الفاتح الاعظم يبي الثاني الذي قدّم للهيكل عمدة

آنية ، مع خوان للتقدمة ، وكثير من التائيل الصغيرة من الحزف منها ما يمثل انثى قرد وقد ضبت صغيرها الى صدرها بجنون . وهو تمثال يظهر آية في الفن دقة وحقيقة بتميل . حتى ان احذق فناني العصر قد لا يفوق في ذلك فنسأن القرن الخامس والمشرين ق . م .

ولكن هناك اسراً في غاية الغرابة ، لا ندري هل سيبه عدم التوفيق في اجراء الحفريات ام الانقلابات السياسية في ذلك العصر ، وهو اننا لا نرى في الالف الثالث ق . م . ذكر ملك واحد من الوطنيين ، بل نرى كل الهدايا مقدمة رأساً الى الآلهة . فهل يميز لنا هذا الاعتقال ان نستنج فنقول ان بيلوس كانت في الالف الثالث ق . م . تحت حكم مصر المباشر ؟ هو ما لا يمكن ان نؤججه حتى اليوم على رغم المظاهر المتعددة .

ومها يمكن من الامر فان النصوص ، حتى الفينقية منها ، ظلت الى ما وراء ذلك الزمن تكتب بالحروف الهيروغليفية . بيد أنه قد يكون بإمكاننا ان نعتبر راقية الى هذا العصر تلك الكتابة القريبة التي اكتشفت السنة الماضية في بيلوس . وهي تحتوي على احد عشر سطراً بالهجدية مؤلفة من صور مختصرة تشابه الهيروغليف ولكن من نوع غريب لم يُعرف قبل اليوم ، ولم يتمكن احد حتى الآن من قراءة كتابتها . فهل تكون أثراً من ذلك العصر ، ومظهراً لطور الانتقال من الخط الهيروغليفي الى الالهجدية الفينقية ؟ اننا لا نرى الفرضية مستحيلة . . .

### الثورة المصرية وتأثيرها في بيلوس

في اواخر الالف الثالث ق . م . شبت في مصر ثورة هائلة قام بها الخدم والمالِك ، فاسقطوا اسيادهم من امراء و فراعنة ، واستبدوا مكانهم بالملك . فكان من جراء ذلك مذابح وبلايا دامت نحو قرنين ساد فيهما الحروب والنوضى في جميع انحاء مصر ، حتى طمع الاجانب في وادي النيل واستولوا على قسم منه .

وكان من طبع المصريين الرغبة في النجيب والزنا . فوجد ادباؤهم في تلك

الحوادث موضوعات عديدة لبتكلمهم فانصرفوا اليها ناديين ممددين . وقد حفظت لنا الآثار قول احد كتبتهم في وصف ما ابداه الممالك الحديثو النعمة من الصلف والاستبداد فقال : « ان الاقرع الذي كان يُنفر منه لما كان عليه من القراد ، اصبح يدلك صلته بالثيوت والطيب ويفرض على المعائل الشريفات احتمال مداعباته المرعبة .»

وقال كاتب آخر من العصر نفسه : « لم تعد المراكب تبحر الى بيلوس فتتورد الخشب لبناياتنا وانواع الصنغ والقطران لتحنيط موتانا .» فكان انتطاع هذه العلاقات تقيل الرواة على مصر .

اما في بيلوس فقد كشفت الحفريات عن جدران الهيكل الراقية الى الالف الثالث ق . م . فاذا بها متكلنة ، وفي اهرام الهيكل كثير من القمح المحروق . واذا فان ثورة مصر اضعفت نفوذ الفراعنة في بيلوس ، فقام سكانها تازين على المصريين .

الآن ان هذه الثورة المطية لم تلتحق ضرراً بالمدينة ، بل كان الامر على عكس ذلك . فاننا نرى بيلوس بعد هذا العصر المضطرب على غاية ما يمكن الازدهار .

والى هذا العصر ، او الى ما قبله قليلاً ، يرقى السور الفخم الظاهر تحت سور الصليبيين . وهو مبني بججارة دون ملاط يبلغ عرضه من ثلاثة الى اربعة امتار ، وتسنده من الداخل ركائز مربعة يبلغ ضلعها المترين . اما من الخارج فتعلوه طبقة من الطين لا ريب في انها كانت مبنطة الظاهر حتى يصعب تسلقها . وهذا السور من انخهم ما يُعرف من نوعه في سورية وفلسطين . ولا عجب فقد خلّدت الترواة حذق الجيليين في نحت الحجارة .

وبعد ان اتم الفتيقيون بناء السور ضحوا ، حسب عادتهم ، ببعض اطفالهم ، ووضعوا هياكلهم في جوار كبيرة مكنوها في اسفل السور وقد كانت هذه العادة الوحشية عزيزة على الفتيقيين على الرغم من ذم الاقدمين لها ، ولاسيما الترواة . وذلك ان الفتيقيين كانوا ، كماثر البحرين ، كثيري البسادة ، راسخي العقيدة ، شديدي التسك بالتقاليد ، حتى انهم لم يتخلصوا من تلك

العادة الذهبية ألا في عصر متأخر ، يساعدنا التاريخ على تقديره اذ يروي لنا انه لما حاصر الاسكندر الكبير مدينة صور ، كان فيها كثير من اهالي قرطاجة فنصحوا لسكانها ان يقوموا بيمض الضحايا البشرية ترضية للالهة كما جرت عادة سلفائهم ، فأبى هؤلاء ، وضموا عبادة جدودهم الوحشية . وعليه يمكننا الاستنتاج ان تلك العادة استوصلت بين القرن التاسع وهو تاريخ بناء قرطاجة والقرن الرابع وهو تاريخ خراب صور .

### صه أمار ييلوس

وكانت ييلوس المتجددة بحاجة الى هيكل فبني بعد ان وُضع تحت بلاطه ثلاث جرار كبيرة مُلئت بالهدايا والتذود . وقد شا . القدر ان يحصل متحف بيروت على هذه الجرار ، فاذا فيها نحو ١٥٠ تمثالاً صغيراً من البرونز المورّ بالذهب . على ان تلك الصبغة الذهبية اضحلت لرقتها ولم يبقَ إلا آثار منها علفت في مطاوي بعض التماثيل . واكثر ما يتجلى الآلهة ، والنساء ، والابطال مسلحين بالخنجر ، او بالرمح ، او بالقي . ويمكن ان نقسم هذه التماثيل المصنوعة كلها في فئتين الى فرعين ، يتبين صادرين عن طريقتين للفن مختلفتين : اما الاولى فنست الى الفن المصري بصلته قوية ، واما الثانية فتنبع الطريقة الاسيوية لاسيا في ما خسر لبس اللبادة المبروفة . ومهما يكن من خاصة فنية في ذلك ، فاننا نرى جميع الرجال مرسلبي اللحي ، بارزي الانوف ، ظاهرين ، في قسوت وجوههم ، بظهور المثال الوطني الاسيوي الذي يقرب كثيراً من المثال السوري الشمالي ، او من مثال بلاد الحثيين . وان واحداً من تلك الشغوص الصغيرة يمثل عجلاً ممشى بالذهب في غاية ما يكون من اتقان الصناعة . وبعد ذلك وُضع برّة رابعة تحت بلاط الهيكل فاكتشفها السيد مونت وخرج منها ومن حولها كثيراً من التماثيل الصغيرة ايضاً وفيها شغوص القردة ، والارانب ، والاسود ، او الاسطوانات التي كانت تُعمل اختتاماً كما جرت العادة في سورية الشمالية . وكان بين هذه الآثار حلقي من الذهب مستدير الشكل نقشت فيه الالهة وحُفرت النجوم رمزاً الى الالهة عشتروت (انظر الرسم ١) . وقد وُجد في هيكل شوشنك قطعتان شيبتان بهذا الحلي ،

الا انها اقل منه قيمة فنية . مما يدل على انه كان لبيلاوس علاقات مع بلدان آسية الوسطى منذ القرن السابع عشر ق . م . فكانت تمثل في ذلك العصر العريق الدور الذي تمثله بيروت اليوم ، اي انها كانت مرفاً الشرق .  
ومما وُجد في هيكل بياوس ايضاً سلسلة شخص من البرونز تمثل عدة حيوانات كالاسود والثيران وما اليها ، وتدل بالاجمال على ملاحظة دقيقة وفن رشيقة .

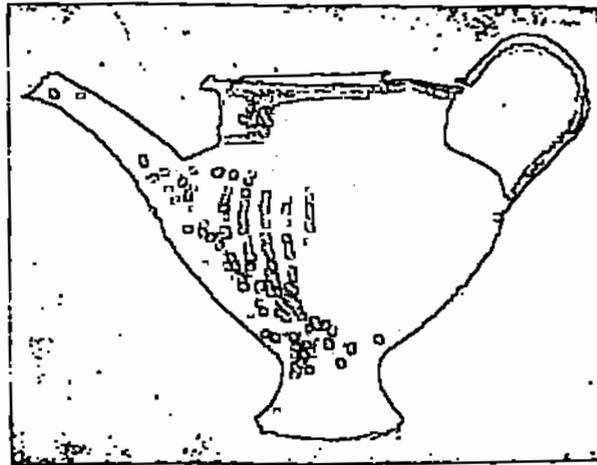
ويظهر ان هيئة بعض الآلهة المشتهة مصرية محضة ألا ان هذه التماثيل مصنوعة في فنيقية دون شك . ولقد كان الفنيقيون كالمصريين يبنون في التعبير عن صفة يمثلمهم بإشارة بسيطة تلخص اخلاقه كلها . ومن هذا القبيل تماثيل الاله فتاح ، وهو ولد صغير مثل يمس احدى اصابه .  
على انه ما وُجد من الآثار في هيكل بياوس لا يكاد يذكر الى جنب ما اكتشف في القبور الملكية من الكنوز الفنية اراقية الى العصر نفسه .  
كان ملوك بيلوس ، في هذا العصر ، اي في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق . م . يُدفنون بين السور والبحر . فكان القادمون من البحارة الى بيلوس يرون الآثار المقامة على قبورهم قبل ان يصلوا الى المدينة .  
وقد شات الصدف ان يكتشف مقر هذه المقبرة الملكية على الصورة التالية :

ان امواج ذاك الخليج الصغير تهيج في فصل الشتاء فتضرب أساس الشاطئ حتى تخالطها . فكان انها احتفرت قسماً كبيراً من ترابه سنة ١٩٢٠ ، فانهار احد المرتفعات ، وظهر تحته غرفة مربعة . وعلى اثر ذلك سرّت احدى نساء جيل امام ذاك الانهيار ، فدفعها الفضول الى معرفة ما في الغرفة . ولشد ما كان اندهالها اذ رأت فوق الغرفة ناروساً عظيماً من حجر واحد ، وعلى الجدران بعض رقائيق من الذهب تلمع تحت وقع شعاع من الشمس داخل من احد الخرواق . ولقد كان اندهالها اعظم اذ شامت في زوايا الغرفة عدة جوار موقفة ومسندة بترتيب . فلم يكن من شك في انها ملأى بالكنوز ، حتى لم يعد للمكيئة من صبر على فتحها ، فاسرعت وحملت احداها على كنفها وخرجت كالجنونة

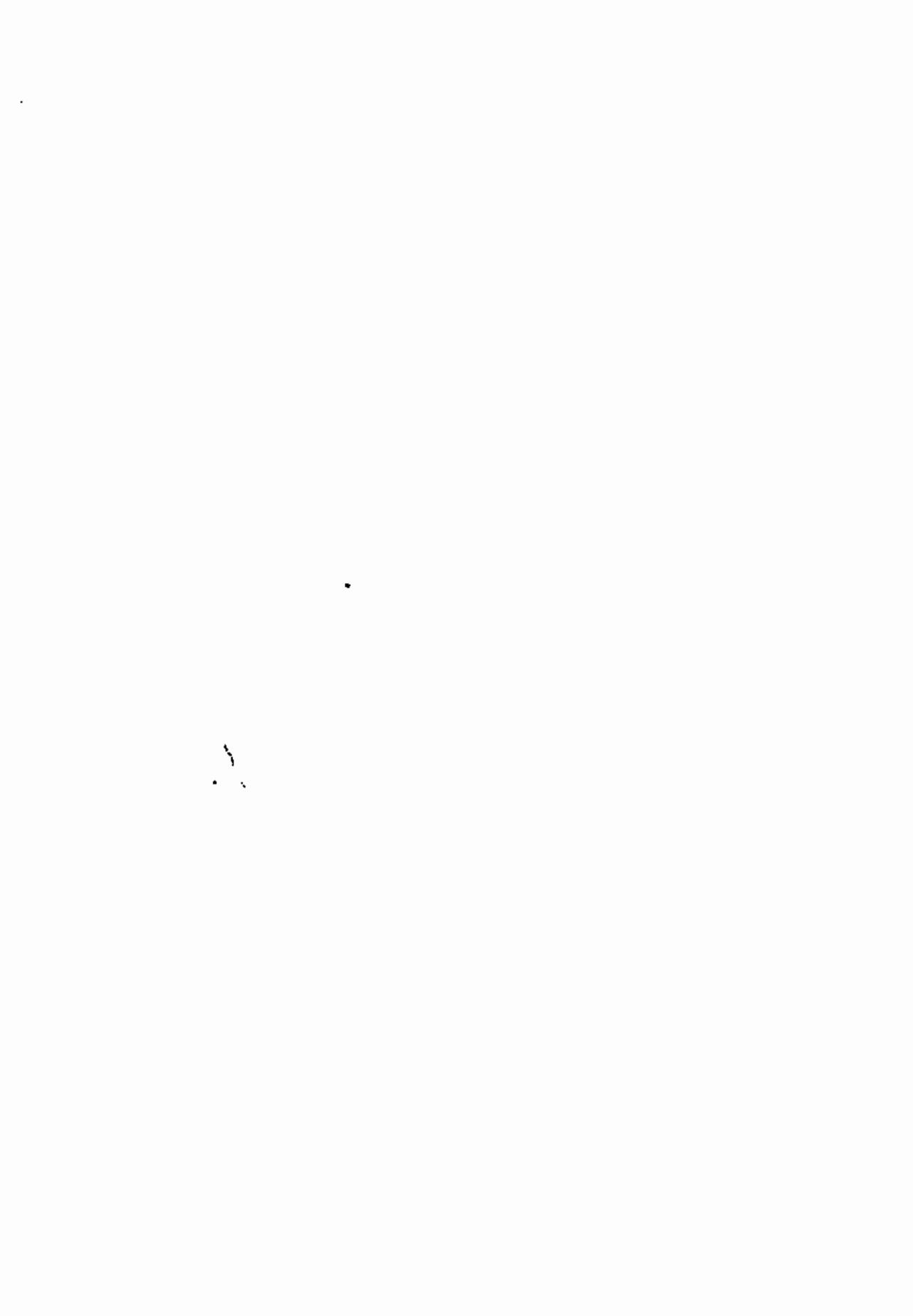


الرسم ١  
حلي من الذهب وُجد في بيلوس أثناء  
حفريات الميومتة  
(متحف بيروت)

الرسم ٢  
نسر من الذهب باسط جناحيه  
من آثار بيلوس  
(متحف بيروت)



الرسم ٣ : اناء من فضة وُجد في بيلوس (متحف بيروت)



واكضة في اسواق البلدة الصامته منادية بأعلى صوتها : كتر ا كتر ا على انها سرعان ما افاقت من نشوتها ، اذ اوقفها افراد الجندمة فاخذوا منها الجرّة ، وحرسوا باب القرقة ، وابقوا الى بيوت .

فاجريت الحفريات بكل دقة ، واذا بالقبر مبني على الطريقة المصرية ، وهو يحتوي على طابق سفلي مؤلف من بئر مربعة المنخل يبلغ عمقها نحو التسعة الامتار ويبلغ ضلع مدخلها نحو الاربعه ، منقورة في الحجر الصلد . وفي اسفلها مئذى واسع يوصل الى الضريح . وفيه كانوا يضعون الميت في ناووسه ، ومعه كل ما كان يجب من الآتية والحلي . اما الناووس الذي يهتنا امره فكان خالياً من هيكل صاحبه ، فلم يُرَ فيه إلا ما دفن مع الميت من الحلي والاشياء الثمينه . من ذلك قطعة من الذهب تمثل نمرأ باسطاً جناحيه (الرسم ٢) وُجدت محل عتق الميت في الناووس ، وحذاء من الفضة كان محلّ القدمين . والى جانب اليد ، وُجد صولجان من البرونز ، على هيئة المنجل ، وفيه نقش على هيئة رؤوس الافاعي . ثم انا من الفضة لا يكاد يختلف في شيء عما نستعمله في عصرنا لكب الشاي وما شا كل (الرسم ٣) . هذا ومن بعض آتية اخرى وُجدت في هذا القبر يظهر من شكلها وطريقة شغلها انها من عمل جزر بجراجيه ، يمكن ان نستنج انه كان بين لبيوس وهذه الجزر المزدهرة بالمران اذ ذلك ، علاقات وثيقة ، ولا غرو فالشعبان من مشهودي البحارة في الكرون .

( للبحث صلة )

